(٣)

رجوع أئمة الخلف لمذهب السلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد؛

قال شيخ الإسلام غفر الله له: ((فلما ابتنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين كانت النتيجة: استجهال السابقين الأولين، واستبلاههم، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين، بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله.))

الحمد لله وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد ﷺ. أما بعد.

قال الشيخ (**فلما ابتنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين**) ما هما المقدمتان اللتان أفضيتا للنتيجة ؟. أما المقدمة الأولى فهو ما سبق من أنهم لا يعتقدون أن لله ﷻ صفة ثبوتية في نفس الأمر. المقدمة الأولى اعتقاهم أنه ليس لله ﷻ صفة ثبوتية في نفس الأمر. وهو قوله فيما تقدم "**وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص**".

أما المقدمة الثانية التي ابتنى عليا باطلهم فهو اعتقاهم أن طريقة السلف الإيمان بألفاظ جوفاء ليس تحتها معاني. فماذا أدت إليه هاتان المقدمتان؟ **أدتا إلى استجهال السابقين الأولين واستبلاههم واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين**. يعني بناء على هاتين المقدمتين الباطلتين، أفضى بهم الأمر لوصف السابقين الأولين من الصحابة والتابعين بالجهل والبلاهة في هذا الباب وبمنزلة أهل الكتاب الذين لا يقرأن الكتاب إلا أماني. بالفعل هذا معتقدهم في السلف. ولهذا لو وجدت تقريراتهم في هذا الباب يقولون "اعلم أن أهل السنة والجماعة في هذا الأمر على طريقتين طريقة السلف التأويل الإجمالي وطريقة الخلف التأويل التفصيلي" ثم يعرفون طريقة السلف بأنها الإيمان بألفاظ النصوص وترك تعيين المراد. وأن طريقة الخلف هي تعيين المراد بأنواع المجازات المختلفة. فهذا هو الاستجهال الذي ذكره الشيخ رحمه الله. وقد برأ الله ﷻ ونبيه ﷺ السابقين الأولين من الجهل وأثنى عليهم ﷻ في كتابه ونبيه ﷺ في سنته. فهم خير القرون لا كان ولا يكون مثلهم، وإنما أتي القوم من جهلهم بهذا. وإنه لمن دواعي الأسف وأقولها بمرارة أن كثيرًا من المعاصرين ليومنا هذا لا يفهمون مراد السلف في باب الصفات. حتى إني اطلعت على بعض من ألف في التفويض وادعاء أنه مذهب السلف وقدم له أناس يشار لهم بالبنان. وتقرأ في ثنايا سطورهم ما يدل على عدم فهم مذهب السلف. كيف وقد استبان الرشد وقام العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم بتجلية الأمر وإيضاح الأدلة وبيان الإثبات كما في هذه الرسالة الحموية. لكن هذه آفة التقليد وشؤم السير على طرائق السابقين دون تبصر ونظر فهي خسارة عظيمة وغرم كبير.

((ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة. كيف يكون هؤلاء المتأخرون . لا سيما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين . الذين كثر في باب الدين اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم حيث يقول:

لعمري لقد طفتُ المعاهدَ كلَّها... وسَيَّرتُ طَرْفي بين تلك المعالِمِ

فلم أرَ إلا واضعًا كفَّ حائرٍ... على ذقَنٍ أو قارعًا سِنَّ نادمِ

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

وأقروا على نفوسهم بما قالوه متمثلين به أو منشئين له فيما صنفوه من كتبهم؛ كقول بعض رؤسائهم:

نهاية إقدام العقول عقالُ... وأكثر سعي العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشة من جسومنا... وغاية دنيانا أذى ووبالُ

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

[لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. أقرأُ في الإثبات {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:٥]، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [فاطر:١٠]، وأقرأُ في النفي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى:١١]، {وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه:١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي].

ويقول الآخر [منهم]: «لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمة [منه] فالويل لفلان، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي».ويقول الآخر منهم: «أكثر الناس شكًا عند الموت أصحاب الكلام».))

شرع الشيخ رحمه الله في نقد المقالة السابقة التي حكاها عن بعض الأغبياء وهي قول بعضهم "**طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم**" فقال مبينًا أوجه دلالة بطلانها أن من أوضح دلالة بطلانها: كيف يكون هؤلاء المتأخرون الذين يشار لهم بأنهم الخلف أعلم وأحكم من الصحابة والتابعين الذين يشار إليهم أنهم السلف؟ هذا من أمحل المحال وأبعد البعيد، وهم قد كثر اضطرابهم وغلظ عن العلم بالله حجابهم ودلائل ذلك هذه الشواهد التي حكاها ونقلها عن أسلافهم الذين يشار لهم بالبنان. فالبيتان الأولان من كلام الشهرستاني صاحب الملل والنحل، ويفشيان بما عنده من شك وتردد، وهو من علماء الأشاعرة، وإطلاعه على مقالات الناس واسع كما يتضح ذلك من كتابه الملل والنحل. والأبيات الثلاثة التي تلاها من كلام الفخر الرازي وهو من كبار أئمة الأشاعرة الذين قعدوا مذهبهم وهو من الأشاعرة المتوسطين يعني الطبقة المتوسطة، لأن الأشاعرة طبقة متقدمة طبقة أبي الحسن الأشعري والباقلاني ومن كان في تلك الحقبة وطبقة متوسطة التي فيها الرازي ثم طبقة متأخرة وفيها الجويني. وكلما طال بهم الزمن ازدادوا إمعانًا في التأويل والنزوع نحو طريقة المعتزلة فأبو الحسن والباقلاني وأبو سهل الصعلوكي وغيرهم، كانوا أقرب ممن جاء بعدهم حتى أنهم يثبتون الصفات الخبرية ولا يؤولونها وإنما يؤولون الصفات الفعلية. ثم إن الأمر ازدد والشقة بعدت في من جاء بعدهم حتى كان في زمن الجويني يؤولون الصفات الفعلية والصفات الخبرية سواء بسواء. فالأبيات هذه المعبرة

نهاية إقدام العقول عقالُ وأكثر سعي العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبالُ

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

هذه أبيات للرازي وهي تمثل أسفه وندمه ورجوعه مما يدل على أن ما سود من الصفحات لم يكن على بينة ولا على أساس متين فهو يعلن في هذه البيات وما تلاها فساد هذه الطريقة يقول: **[لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. أقرأُ في الإثبات {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}**

[طه:٥]، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [فاطر:١٠]، وأقرأُ في النفي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى:١١]، {وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه:١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي]. ليس كمثله شيء يعني أنزه الله. ((**ومن جرب تجربتي عرف معرفتي**)) لكن معشر الإخوان والأخوات ومن بلغ لسنا بحاجة لأن نخوض التجربة وقد عافانا الله ﷻ من أن نعرض أعمارنا وأعمالنا لهذه المخاطرة. بعض الناس يقول لا بد لكي تعرف الشر أن تجربه" هذا ليس صواب، إذا عفيت فاحمد الله، فإنك لا تعلم لعله يعلق بقلبك شبهة فلا تستطيع التخلص منها، فاحمد الله ﷻ على العافية ولا تتلقف شبه القوم ولا تقل "أشك لكي أصل لليقين"، بل خذ اليقين مجانًا، خذه مهيئًا باردًا مبردًا قد جاء في الكتاب والسنة على أحسن ما يكون، فقد كفينا وعوفينا ولله الحمد مما ابتلي به غيرنا. وكذلك الجملة الثالثة «**لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمة [منه] فالويل لفلان، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي**».هذا من كلام أبي المعالي الجويني إمام الحرمين، وكان قد خاض وتبحر في علم الكلام وكان له كتب متعددة في تقرير ذلك منها كتاب الإرشاد ومنها الشامل وهي من أشهر كتبه في تقرير العقيدة الأشعرية. ثم إنه في آخر عمره ألف الرسالة النظامية واقترب فيها لمذهب السلف إلا أنه لم يصبه على وجه الدقة. وينبغي لنا أن نحتط لأن بعض الغيورين على الحق والمحبين له يقولون أنه رجع وأنه في النظامية رجع لأهل الحق. الواقع أن رجوعه إجمالي بل إن رجوعه في النظامية رجوع يفهم منه التفويض ولا يفهم منه الإثبات يجزم فيه بأنه لم يسلك مسلك الإثبات بل هو رجح التفويض ولم يرجح الإثبات. إلا أنه أحسن في باب القدر، فخرج من الجبر إلى إثبات أفعال العباد مع إثبات قدر الله السابق، فاقترب كثيرًا من مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة أفعال العباد. ولذلك نبذه أصحابه بأنه آل لقول المعتزلة. والواقع أنه قد رجع كثيرًا للقول الحق وقال كلامًا بديعًا في هذا. حتى إنه لما قرر هذا قال "فالآن أطلقت أنفاسي" يعني كأنما كان محبوس النفس كأنما كان مضطرًا لموافقة أصحاب مذهبه فلما قال ما قال أحس بأنه انعتق من أسر التقليد. وكذلك ما حكي عن غيره – وشيخ الإسلام كثيرًا ما يحكي من هذه المقالات ليبين أن القوم ما كانوا على قدم راسخة في هذا الباب العظيم، بخلاف السلف حينما تقرأ ما كتبه الإمام أحمد أو عبد الله بن أحمد أو أبو عثمان الصابوني أو أبو زيد القيرواني أو الطحاوي أو غيرهم من أئمة السلف المتقدمين تجد لغة ثابتة وكلام مطرد يصدق بعضه بعضًا بخلاف كلام المتكلمين الذي يكتب في أول الكتاب ما يخالفه في آخره أو يكتف في كتاب ما يخالفه في غيره. وكل هذا من شؤم تلقي غير علوم أهل الإسلام. ولهذا نص على هذا الجويني قال "**وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه**" ما الذي نهو عنه؟ علم الكلام. فكان السلف يحذرن من الاشتغال بعلم الكلام حتى قال أحمد رحمه الله "لا يفلح صاحب كلام أبدًا". وقال الشافعي حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة لعلم الكلام. والمقصود بعلم الكلام محاولة إثبات العقائد الدينية بالطرق العقلية، وهذا ليس هو منهج السلف. منهج السلف إثبات العقائد بالنص والكتاب والسنة ثم بعد ذلك الاعتضاد بالعقل إن كان للعقل فيه مساقًا. فأهل السنة والجماعة مصادرهم في الاعتقاد ثلاثة مصادر أساسية وثلاثة مصادر ثانوية. **فالمصادر الأساسية الثلاث الكتاب والسنة والإجماع**. هذه مصادر أساسية يبنون عليها عقيدتهم وعبادتهم. **وأما المصادر الثانوية فهي العقل والفطرة والحس**. والعقل هو آلة أودعها الله الإنسان ليبصر بها ما يمكنه من الاعتقادات. وكذلك الفطرة أودع الله ﷻ في الإنسان فطرة تدله على الحق وتطمئن إليه {فِطْرَتَ

اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} (الروم:٣٠) والحس وهو ما بث الله ﷻ في الكون من دلائل تدركها الحواس ليستدل بها على بعض الأمور العقدية.

((**ثم [هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف] إذا حقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر، ولم يقفوا من ذلك على عين ولا أثر، كيف يكون هؤلاء المحجوبون المنقوصون المسبوقون الحيارى المتهوكون: أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم في باب آياته وذاته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل، وأعلام الهدى ومصابيح الدجى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء، [فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم]، وأحاطوا من حقائق المعارف، وبواطن الحقائق، بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة.**

ثم كيف يكون خير قرون الأمة، أنقص في العلم والحكمة . لا سيما العلم بالله وأحكام آياته وأسمائه . من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟ أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان، وورثة المجوس والمشركين، وضلال اليهود والنصارى والصابئين وأشكالهم وأشباههم؛ أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟!))

ما شاء الله ما على هذا من مزيد كلام معبر ويدل على الثقة والاعتداد بما كان عليه سلف الأمة وأن الله ﷻ خلع عليهم من الإيمان والعلم ما ليس عند غيرهم. وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه أهل الإسلام: ثقتهم ومحبتهم وموالاتهم للسابقين الأولين. أما من اشرأبت أعناقهم إلى الأمم الأخرى من اليونان الإغريق ومن غيرهم من الأمم وصاروا يرمقون ما عندهم ويظنون أنها علوم وليست بعلوم في الحقيقة هؤلاء فيهم من النقص في شخصياتهم وأدياتهم ما أوردهم هذه الموارد. ولازال الأمر هكذا ليومنا هذا. يوجد من الناس من يرمق الغرب والشرق بعين الإعجاب والإكبار ويرى أنهم خير من أهل الإسلام وأهل الإسلام خير من جميع أمم الأرض على الإطلاق حتى مع ضعفهم. {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} (آل عمران: ١١٠). يجب أن يوقن المؤمن أن أهل الإسلام هم خير أمة أخرجت للناس وإن فاقونا في الصناعات وكذا فإنا بحمد الله نفوقهم فيما أعطانا الله ﷻ وهدانا له من الدين والعلم. وإن وجد في هذه الأمة تقصير فبسبب عدم قيامهم بأمر الله ﷻ. أما من الناحية النظرية والعقدية فلا سواء ولا يمكن مقارنة أهل الإسلام وأهل الملل الأخرى بأهل الإسلام. فهم خير وأرشد سبيلاً. ولا أرى أن من يعجب بهؤلاء الكفار إلا وفي إيمانه دخن وفي شخصه ضعف. فلذلك يقدمهم ويبجلهم ويعظمهم ويحيل إليهم ويضرب بهم الأمثلة. هذه المغالاة والمبالغة دليل على رقة الدين وضعف الشخصية.

((**وإنما قدمت هذه المقدمة لأن من استقرت هذه المقدمة عنده علم طريق الهدى أين هو في هذا الباب وغيره. وعلم أن الضلال والتهوّك إنما استولى على كثير من المتأخرين بنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، وإعراضهم عما بعث الله به محمدًا صلى الله عليه وسلم من البيّنات والهدى، وتركهم البحث عن طريق السابقين والتابعين والتماسهم علم معرفة الله ممن لم يعرف الله بإقراره على نفسه، ولشهادة الأمة على ذلك، وبدلالات كثيرة، وليس غرضي واحدًا، وإنما أصف نوع هؤلاء، ونوع هؤلاء. وإذا كان كذلك: فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أولها إلى آخرها،**

ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه فوق كل شيء، وعليٌّ على كل شيء، وأنه فوق العرش، وأنه فوق السماء.))

أما قوله رحمه الله ((**مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر**)) **مراتب الدلالة ثلاث إما نص وإما ظاهر وإما مؤول**. فالنص ما لا يحتمل إلا معنى واحدًا. وأما الظاهر فهو ما دل بنفسه على معنى راجح مع احتمال غيره. وأما المؤول فهو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح. ثم حينئذ ربما يكون هذا الحمل صحيحًا وربما يكون فاسدًا. فالنص أمره بين ما لا يحتمل إلا معنى واحدًا كما مثالاً نقرأ {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه: ٥) هذا نص في إثبات استواء الله ﷻ على عرشه. { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } ونحوها. والظاهر ما دل بنفسه على معنى راجح مع احتمال غيره بمعنى أنه يتبادر للذهن معنى معين ربما كان هناك معنى مرجوح قد يقال لكن لا يلتفت إليه. وأما المؤول فهو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح فيما يجب وهو ينقسم لصحيح وفاسد، مثاله {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (النحل: ٩٨) قد يقول قائل إن ظاهره يدل على الاستعاذة بعد القراءة {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} وقد قال بذلك بعض المتقدمين أن الإنسان يستعيذ بعد القراءة وهذا ما يبدو أنه ظاهر الآية {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} لكنه محمول على إذا أردت أن تقرأ فاستعذ. فهذا الحمل على ما يمكن أن يقال عنه أنه مرجوح بحسب الظاهر هو حمل وتأويل صحيح؛ لأنه قد دلت عليه الدلائل من فعل النبي ﷺ والصحابة أنهم كانوا يستعيذون قبل القراءة ودل عليه المعنى من حياة الإنسان للاستعاذة قبل الشروع في القراءة لا بعدها. وقد يكون هذا الحمل على المعنى المرجوح فاسدًا كتأويلات مؤولي الصفات كقولهم { تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الملك: ١) أي بقدرته فيكون هذا فاسدًا لأنهم حملوه على معنى مرجوح بلا قرينة ولا دليل والمقصود أن هذه الألفاظ نص ظاهر مؤول هي مراتب الدلالة عند الأصوليين.